الباب الأول
كشوف وادي القمران وتفسيرات من فلسفة التاريخ

في وادي القمران

يقُال في بعض التعبيرات المجازية أن حادثاً من الحوادث وقع في طالع هذا البرج، أوذاك من بروج الفلك المشهورة، فإذا جاز لنا أنْ نستعير هذا التعبير، قلنا: إن السنوات القليلة قبل منتصف القرن العشرين كانت فترة يظللها في أفق الثقافة الروحية برج البحوث والدراسات عن تاريخ السيد المسيح، فإن اللفائف المطوية التي كشفت منذ أوائل سنة ١٩٤٧م، وما أعقبها من الشروح والمناقشات والردود، تتألف منها مكتبة عامرة بالموسوعات الدينية والتاريخية، وأمامي الساعة ثبت موجز مضموم إلى ذيل كتاب من هذه الكتب يستغرق خمس عشرة صفحة كبيرة، ليس فيه من شيء غير أسماء الكتب والرسائل التي ظهرت في موضوع تلك اللفائف المكشوفة منذ سنة ١٩٤٧م، وهذا عدا الكتب والرسائل التي ألفها الباحثون عن السيد المسيح بمعزل عن هذا الموضوع، ممن لم يقصدوا إلى التعقيب على تلك الكشوف، ولم يربطوا بينها وبين ما بحثوه من سيرة السيد المسيح.

واتفق أن اللفائف كشفت، حيث لا تسمح الأحوال باستمرار البحث فيها والتنقيب عن بقاياها، في مطلع سنة ١٩٤٧م؛ لأنها كشفت بوادي القمران من شرق الأردن، وتفاقمت يومئذٍ مشكلة فلسطين، فحالت دون البحث الهادئ، والتنقيب المأمون في ذلك الجوار، ولم يتصل خبر تلك الكشوف الهامة بشيء من التفصيل أو البيان المفهوم، إلا بعد استئناف البحث فيها، والاشتغال بدراستها حوالي السنة التي ألفت فيها كتابي هذا، وهي سنة ١٩٥٢م.

فلما علمت بنبأ هذه اللفائف في وادي القمران، توقفت عن إعادة طبع الكتاب قبل أن تتهيأ لي فرصة كافية للاطلاع على مضامين اللفائف والاستفادة مما عسى أن تسفرعنه من دفائن التاريخ المجهول. وفيها، كما قيل يومئذٍ، كتاب كامل من العهد القديم، وتعليقات على كتب أخرى، ودفتر وافٍ بالوصايا والأوامر عن آداب السلوك، بين زمرة دينية تشُبه الزمرة المسيحية الأولى في الشعائر والعبادات.

ولم يكن هذا التوقف عن البت في الموضوع المرتهن بنتيجة الاطلاع على لفائف وادي القمران؛ ليثنيني لزامًا عن متابعة البحث في أسرار النبوة كما بدأت على عهد الخليل إبراهيم وعهد موسى الكليم، فإن البحث في هذه الأسرار على عهد الخليل، يبتدئ بنا من البداءة

الأولى، ويقترب بنا من مطالعها أو ينابيعها التي تقدمت قبل جميع الينابيع،ودراسة النبوة على عهد موسى الكليم تفتتح عهودًا من النبوءات بلغ فيها عدد الأنبياء المتلاحقين العشرات بل المئات، ولكن تاريخ موسى الكليم أيضًا قد يتصل من كثب بتاريخ اللفائف بوادي القمران، إذا كان منها، كما قيل، لفائف تتضمن كُتباً من التوراة، وقطعًا من الكتب الخمسة المشهورة باسم الكتب الموسوية، وكان العثور على نسخ من هذه الكتب عند استئناف الكشف عنها أملًا يسُاور العلماء الحفريين واللاهوتيين، ففضلتمن أجل هذا أن أرُجئ الكتابة عن موسى – عليه السلام – مبتدئاً بالكتابة عن الخليل إبراهيم، وسميت كتابي عنه "بأبي الأنبياء"، وإنتهيت فعلًا من البحث في تفاصيله إلى تقرير العلاقة الحاسمة بين مدن القوافل، والبيئة الصالحة لتلقي الرسالة النبوية، إذ كانت للخليل علاقات متتابعة بكل مدينة من مدن القوافل الكبرى في زمانه، وكان انتقاله من «أور» إلى جوار بعلبك وبيت المقدس، ومدن الطريق بين سيناء والحجاز، سلسلة من الشواهد البارزة، تلفت النظر إلى هذه الحقيقة، وتجلوها على صورها المتقاربة أتم جلاء.

أما الموضوع الذي توقفت عن المضي فيه ريثما تستقصيني موارده الجديدة، فقد كان يتوقف حوالي سنة ١٩٥٣م على مصادر ثلاثة: أهمها لفائف وادي القمران، ومنهاتراجم العهدين القديم والجديد المنقحة في اللغات الغربية، ومنها سيل لم يكن ينقطع في تلك السنة من مؤلفات المفكرين الدينيين وغير الدينيين عن السيد المسيح من وجهة النظرالعصرية بعد الحرب العالمية الثانية.

وقد كنَّ نقرأ في الصحف والنشرات أن لفائف وادي القمران تشتمل على نسخة كاملة من كتاب أشعيا، ونسخة مقروءة سليمة بعض السلامة من تفسير نبوءات حبقوق التي حققتها الحوادث التالية، وشذرات من تفسير كتاب ميخا، وقصى تسُمى قصة الحرب بين أبناء النور وأبناء الظلام، وأناشيد منظومة للدعاء والصلاة، ونسُخة آرامية من كتاب غيرمعتمد بين كتب التوراة، وقُصاصات متفرقة من كتب شتى تلحق بكتب العهد القديم،ونسخة مفصلة لآداب السلوك المرعية بين جماعة النساك الذين أقاموا زمناً بصومعة وادي القمران، وكلها مودعة في جرار كبيرة يوجد الكثير منها في بعض الكهوف المجاورة،

ويبدومن أجل ذلك أنَّ ها قد تشتمل على ودائع من هذا القبيل، لا تقُدر عند العلماء الحفريينوعلماء المقابلة بين الأديان وجمهرة اللاهوتيين على الإجمال.

ولو أن أحدًا أراد أنْ يحُيط بأطراف الكتب والرسائل التي تناولت مسائل البحث في تلك اللفائف خلال هذه السنوات الخمس، لما استوعبها جميعاً، ولو فرغ لها كل وقته،وحسب القارئ العربي أنْ يعلم أنَّ ها بحُثت من كل ناحية تشترك في موضوعاتها الدينية أواللغوية أو التاريخية أو الحفرية أو الكيماوية أو الصناعية، ولم تخلُ منها لغة من لغاتالحضارة الغربية، فقد تناولت البحوث مسائل الهجاء وقواعد الكتابة، واختلاط اللهجاتواللغات، ومواد الورق والجلد والمداد واللصق والتجفيف، كما تناولت أسماء الأعلام، ومإليها من الألقاب والصفات، وما يقترن بها من تواريخ الشعوب والقبائل، ومواقع الأرض،وعوارض الجو والفلك، وأصول العقائد وشعائر العبادات في كل فترة على حسب حظها منالأصالة أو الاستعارة، وعلى حسب المصطلحات التي تلازمها ولا تعهد في غيرها، واتسعنطاق البحث إلى غاية حدوده لتحقيق نماذج البناء، وصناعة الآنية الفخارية، وعاداتالأكل والشراب، وأزياء الكساء، ومواد الأطعمة، وثمرات النبات، وتراوحت تقديرات الزمنبين القرن الخامس قبل الميلاد والقرن الأول بعد الميلاد، ولم تستقر بعد كل هذا التوسعوكل هذا الإمعان والتدقيق على قرار وثيق.

ومن البديهي أننا لم نستوعب هذا الطوفان الزاخر من الفروض والنقائض، وعلى كلما في هذه البحوث من مواضع المراجعة والعدول، ومواضع التشكيك والترجيح، بل نحنلم نشعر بضرورة الاستيعاب والاستقصاء كي نخلص منه إلى القول الجديد في تاريخالسيد المسيح، ولكننا عمدنا إلى نخبة من كتب الثقات التي ألمت برءوس المسائل، ولخص تمحور الخلاف ومبلغه من الدلالة في كل مسألة منها، وخرجنا منها بالخلاصة المطلوبة فيما يعنينا، فكانت هذه الخلاصة أن الجديد في الأمر لا يزال من عمل السيد المسيح، أومن فتوحه المبتكرة في عالم الروح، وأن كل مشابهة بينه – عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ– وبين مذاهب الدين قبل عصره، تنتهي عند الظواهر والأشكال، ولا تدل على فضل أسبق من فضله فيما ارتقت إليه عقائد الدين على يديه.

ولعل أرجح الأقوال التي خلصت إليها أكثر البحوث والمناقشات، أن نسُاك صومعة القمران كانوا زمرة من «الآسينيين» إحدى الطوائف المتشددة في رعايتها للأحكام الدينية، وانتظارها للخلاص القريب بظهور المسيح الموعود، وهذه هي الطائفة التي ذكرناها في «عبقرية المسيح»، فقلنا عنها ما فحواه أنها أقرب الطوائف الإسرائيلية إلى التطهر من أدران المطامع والشهوات، وأنَّ هم «كانوا ينتظمون في النِّحلة على ثلاث درجات، وأن أحدهم يقسم مرة واحدة يمين الأمانة والمحافظة على سر الجماعة، ويحرم عليه القسم بالحق أو بالباطل مدى الحياة، وليس بينهم رئاسة ولا سيادة، والمادة عندهم مصدر الشركله، والسرور بها سرور بالدنس والخباثة، وكانوا يتآخون ويصطبحون اثنين اثنين فيرحلاتهم، وهم مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدي الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح»، ثم قلنا عنهم في سياق الكلامعلى زمرة المتنطسين بمصرTherapeuts إن هؤلاء المتنطسين، ربما كانوا أساتذة النساك اليهود المسمين بالآسين أو الآسينيين على قول بعض المؤرخين، لأننا رجحنا أن الاسم مأخوذ من كلمة الآسي بمعني الطبيب، وهي تقُابل كلمة الثيرابيين اليونانية بمعنى المتنطسين.

فإذا صح أن زُمرة وادي القمران كانت تنتمي إلى الآسين، وصح أكثر من ذلك أن صومعتهم كانت هي البرية التي كان يلوذ بها السيد المسيح ويوحنا المعمدان، فالجديد في هذا الكشف هو توكيد الحاجة إلى رسالة السيد المسيح، أو توكيد فضل الدعوة المسيحية في إصلاح عقائد القوم كما وجدتها على أرقاها وأنقاها بين أتباع النِّحل اليهودية قُبيل عصر الميلاد.

فالكتب الآسينية – أو الآسية – التي وجدت في الصومعة تصف لنا نظم الجماعة وآداب سلوكها، وشدة حرصها على الشعائر الموروثة بين قومها، ولكنَّ ها لا تزال مُصابة بداء القوم الذي إنتهى إلى غاية مداه في تلك الفترة، وهو داء الجمود على النصوص والحروف، والانصراف عن جوهر العقيدة ولباب الإيمان، ولا تزال النِّحلة الآسينية نفسها أدل على الحاجة إلى الإصلاح من النِّحل المتهمة أو المحاطة بالشبهات لأن النِّحلة المتهمة تجد إصلاحها عند الراشدين من أبناء الديانة القائمة، وكل نحلة يهودية زائغة عنسوائها تجد من يقومها من العارفين باستقامتها في نطاق الديانة اليهودية، ولكن الحاجة إلى الإصلاح إنَّ ما

تثبت كل الثبوت إذا بلغت النّحلة أرقى ما تبلغه، واستنفدت كل طاقتها تهذيباً وتطهيراً وإخلاصًا وتذكيراً، ولم تزل بعد ذلك قاصرة عن تزويد الروح بما تتعطشبه وتفتقر إليه، وكذلك كانت النِّحلة الآسينية التي كشفت عنها لفائف وادي القمران، أيًّا كان اسمها، وأية كانت وجهتها، فإنها لم تمهد لرسالة السيد المسيح إلا كما يمهد المريض للعلاج أو يمُهد الداء للدواء، ولا شك أن اللفائف المكشوفة ذخيرة نافعة في بابها، ولكنها لا تضيف إلى معلوماتنا عن حقائق الرسالة المسيحية، ولا تخرجنا بشيء جديد في أمر هذه الرسالة، غير أنها تؤكد لنا فضلها ولزومها في أوانها، فمهما يكن من غرض النحلة الآسينية، فهي في أصولها وفروعها بقية محافظة على تراثها متشددة في محافظتها، ناظرة إلى أمسها حتى في التطلع إلى الغد المرجو انتظارًا للمخلص الموعود على حسب النبوءات الغابرة، ولهذه الآفة الوبيلة – آفة التشدد في عبادة المراسم والنصوص – كانت الدعوة المسيحية رسالة لازمة تعلم الناس ما هم في حاجة إلى أنْ يتعلموه، كلما غرقوا في لجة راكدة من الحروف الميتة والأشكال المتحجرة، تعلمهم أن العقيدة مسألة فكرة وضمير،لا مسألة حروف وأشكال. وهذه هي رسالة السيد المسيح في ذلك العصر الموبوء بجمودهَّ وريائه على السواء؛ لأن الرياء إنَّ ما هو في باطنه جمود على وجهه طلاء.

ونستطرد من تلخيص نتيجة اللفائف المكشوفة إلى تلخيص نتيجة المناقشة – أوالمناقشات الطويلة – حول الترجمة المنقحة في اللغة الإنجليزية لكتابي العهد القديم والعهد الجديد.

إنَّنا سمعنا بنبأ هذه الترجمة المنقحة بعد سماعنا بنبأ اللفائف المكشوفة، وكدنا نحصر الضجة الكبرى حول فقرة واحدة في كتاب أشعيا في العهد القديم، فاعتقدنا أنَّ المشتغلين بتنقيح الترجمة رجعوا إلى نص جديد في لفائف وادي القمران لأن كتاب أشعياهو الكتاب الكامل الذي اشتملت عليه تلك اللفائف فيما اشتملت عليه من الآثار المتفرقة، ولكننا تلقينا البيان الوافي عن عمل المنقحين، فلم نجد فيه ما يشير إلى علاقة بين الكشوف الجديدة وبين تنقيح الترجمة المتداولة من كتب العهد القديم على الخصوص، لأن الفقرة التي جاءت في كتاب أشعيا وثارت حولها الضجة الكبرى بين أنصار التنقيح ومعارضيه،لم تفُاجئ علماء اللاهوت برأي لم يعلموه من قبل، ولم يذهبوا فيه كل مذهب من الطرفين المتقابلين.

ثارت الضجة حول فقرة في الإصحاح السابع مترجمة في اللغة العربية بالكلمات الآتية: «... يعطيكم السيد نفسه آية، ها العذراء تحمل وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانويل».فهذه الفقرة تظهر في الترجمة الإنجليزية المنقحة بعبارة «امرأة شابة في مقابلة كلمة علامة» العبرية، وكلمة Parenthos «بارنثوس» في الترجمة السبعينية، ولا جديد أيضا في هذا الخلاف لأنه خلاف لم ينقطع بين المذاهب الثلاثة التي يدور بحثها على تفسير المقصود ببتولة السيدة مريم أم المسيح – عليه السلام. فمن أصحاب المذاهب المسيحية من يفسرها بالبتولة الدائمة قبل ميلاد المسيح وبعده، ومنهم من يقول بالبتولة قبل ميلاده، ثم ولادة إخوة له بعد ذلك وردت الإشارة إليهم في كتب العهد الجديد، ومنهم من يرجع إلى النصوص العبرية، ولا يذكر كلمة البتول كما تقدم. وجواب القائلين بالبتولة الدائمة على المستشهدين بذكر إخوة السيد المسيح في كتب العهد الجديد أنهم أبناء عمومة أو أنهم إخوة منسوبون إلى يوسف خطيب مريم، إلى آخر ما ورد في هذا الخلاف القديم الجديد.

ولقد كانت أمامنا تفاصيل هذا الخلاف عند كتابة « حياة المسيح» فلم نعرض له، ولم نعرض لبحث من البحوث في هذا الصدد، إلا ما كانت له صلة لا فكاك لها برسالة السيد المسيح في عالم الهداية الروحية، ولهذا لم نذكر معنى كلمة «أخي الرب» التي شفعت باسم

«جيمس» المقابل لاسم يعقوب في الترجمة العربية، وقلنا عنه إنّه «جيمس قريب السيد المسيح».

وقد خطر لبعض الناقدين أننا سميناه كذلك لأننا لم نطلع على الترجمة العربية لكتب العهد الجديد، وإنه لظن يستسهله من يستسهل النقد بغير روية، ويحسبه بعيداً كبعد المستحيل من يعلم من قراءة «حياة المسيح» أننا على الأقل فتحنا كتب العهدين مائة مرة، لنبحث فيها عما بحثناه، وننقل منها ما نقلناه، فالآن تعرض المناسبة التي نذكرفيها سبب تلك الإشارة على علاتها، دون أن نبدي رأياً في تصحيف كلمة جيمس من كلمة يعقوب، ودون أن نقرر في الإشارة العابرة حكماً فاصلاً لا موضع له بين هذه التفصيلات، وربما كان اتفاق الوقت بين ضجة الترجمة المنقحة، وضجة اللفائف المستخرجة من وادي القمران، مع تكرار الكلام عن كتاب أشعيا في كلتا الضجتين؛ هو الذي أوحى إلينا أنْ ننتظر ما وراء ضجة الترجمة كما أوحى إلينا أنْ ننتظر ما وراء ضجة اللفائف المكشوفة،فقد يكون هنالك من النصوص والأسانيد ما يوُجب إعادة النظر في كتابة «حياة المسيح» ولولا هذا التقدير لما كان الخلاف على تفسير البتولة وحده موجباً للانتظار إلى ما بعد فراغ القول منه، إذ كانت أوجه الخلاف جميعًا في هذه المسألة معروفة من زمن قديم، وكانت من المسائل التي كان في وسعنا أن نتتبعها في مصادرها قبل الكتابة عن السيد المسيح.

إلا أننا نسأل الآن بعد خمس سنوات: هل كان مما يريح الضمير أن نمضي في إصدار الكتاب مرة أخرى، قبل أنْ نطلع على الكتب الجديدة التي كانت تتعاقب في اللغات الغربية، كتاباً بعد كتاب عن السيد المسيح ورسالته، ونظرات المحدثين إلى هذه الرسالة في زمانهاوفيما أعقبه من الأزمنة؟

إننا تمهلنا قبل خمس سنوات في إصدار الطبعة الحاضرة، لأننا اعتقدنا أن تنقيح الترجمة قد يعود إلى أسباب توجب المراجعة وإعادة النظر، ولكننا نسأل اليوم: ترى لو أنَّنا علمنا يومئذٍ محور الضجة على الترجمة، وعلمنا أنَّها موضوع مُعادٍ في قضية معروفة؛ هل كن ا نستخف من أجل ذلك بالفيض المتدفق من الكتب والرسائل التي كتبها أصحابها في موضوع كموضوعنا، ومن وجهة نظر تعنينا، أياًّ كان شأنها من الموافقة، أو المخالفة لوجهة نظرنا؟

نحسب أن اشتغالنا بالاطلاع على طائفة من تلك الكتب كانت سبباً كافياً لتعليق النظر كي نصدر الكتاب على الأقل مطمئنين إلى عاقبة هذه الأناة، فإنْ غير الاطلاعُ على الكتب الجديدة آراءَنا في موضع من مواضع الكتاب، فتلك فائدة جديرة بالانتظار، وإنْ اطلعنا على الكتب الجديدة، ولم تتغير نظرتنا، فتلك طمأنينة نحمدها، وما ضيعنا شيئاً بهذه الأناة.

وأيسر ما نقوله الآن عن الكتب الجديدة، والغث، والمتفوق والمتخلف،كما يكون في كل تأليف، ولكننا خلقاء أنْ نحمد حظنا ما استوفيناه منها؛ لأن الغث منها كان من قبيل المقروءات التي تنكشف غثاثتها للمتصفح بعد الإلمام بسطور هنا وسطورهناك، وأما السمين منها فقد كان كافياً في موضوعه، كما كان مكافئاً لما ينفقه القارئ من الوقت والجهد فيه.

ونستطيع أنْ نسلك هذه الكتب القيمة في بابين واسعين: باب التأمل وما إليه من النظر الفلسفي والخواطر الوجدانية، وباب النقد التاريخي والتحليل العلمي على قواعد المقابلة بين الأديان.

ويلذ القارئ ولا ريب أنْ يعلم رأي الفيلسوف العصري في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم نيتشه في العصر الحاضر، أو يعلم رأيه في المقابلة بين تعاليم المسيح وتعاليم كارل ماركس وأصحابه الماديين، أو يعلم وجوه المشابهة ووجوه المناقضة بين خطة المسيح في الإصلاح الإنساني وخطط الساسة ودعاة الاجتماع في القرون الحديثة، أو يعلم بلاغة الكلمات المسيحية حين تقترن بكلمات البلغاء من أصحاب الكلم الجامع والحكمة المأثورة، فهذه وأشباهها هي مدار القول في كثير من تلك الكتب العصرية، يتفق أحياناً أن تدل عناوينها على أغراضها، ولكننا لا نعتقد أنَّ ها مما يقتضينا البحث في كتابنا هذا أنْ نبسطها أو نطويها موجزين، وقصارى ما نقوله عنها أنَّ ها أشبه بالصور المتعددة للوجه الواحد في لوحات كثيرة، ليست محل تلخيص ولكنَّ ها محل استزادة لمن شاء.

أما الكُتب التي نسلكها في باب النقد التاريخي والتحليل العلمي، ففيها حقا مايهتم به الباحث في تاريخ الرسالة المسيحية وفيها ولا مراء بحوث جديرة بطول التأمل، وإنعام النظر، ومواجهة الموضوع كله في نطاقه الواسع من جميع جهاته، وليسفي استطاعة أحد أن يوُاجه هذا الأفق الواسع ما لم يكن على استعداد له بكل عدته من المراجع والأسانيد.

ومن الإطالة على غير طائل أن نسرد هنا أسماء المؤلفات والمؤلفين في هذه البحوث النقدية، فإننا – بعد ما وقفنا عليه منها – نرى أن القارئ لا يفوته شيء من جوهرهاإذا اطلع منها على كتابين اثنين يحويان جملة المناقضات والأقاويل التي تتعرض للقبول أو الرفض في هذه البحوث، ونعني بها كتاب[1] "الجانب الآخر من القصة" "تأليف روبرتفيرنو"، وكتاب[2] "إنجيل الناصري يعُاد" "تأليف روبرت جريفس وجوشيا بردو"، وكل االكتابين مؤلف باللغة الإنجليزية.

وندع التخمينات الملفقة التي تتخلل الكتابين، وينبغي أنْ نذكر – بداءة – أنَّها تخمينات كثيرة، وأنَّها في بعض الأحايين تخمينات معتسفة يعترف المؤلفون باضطرارهم إليها؛ لإتمام الحلقات المفقودة في السلسة التي سبكوها من بقايا الأسانيد المختلفة منذ القرن الأول للميلاد، ومن صنع خيالهم في مواقع النقص المعترضة في فجوات تلك الأسانيد، ولا ننسى أن أحد المؤلفين روبرت جريفس قصاص يعتمد على التصور الفني في التوفيق بين الأخبار وتنسيق الملامح وملاحظة التناسب بين ألوان الشخصيات، وله قصةً في الموضوع نفسه سماها «عيسى الملك» يشرح فيها بالأسلوب الروائي نظريته التاريخية عن سيرة السيد المسيح، وزبدتها أن السيد المسيح قد نشأ برعاية هيئة باطنية كانتتعمل لتعجل الخلاص على يد الملك «المسيح» الذي يأتي من ذرية داود لإنقاذ شعب لله المختار، وأن يوُحنا المعمدان هو الذي وُكل إليه اختيار المسيح المنتظر على حسب العلامات المحفوظة في النبوءات، فاختاره وعاهده وبايعه «ملكاً» مسيحًا أي ممسوحاً بالزيت المقدس على سنة الملوك المختارين من الأقدمين، وأن زعماء الهيكل لم يكونوا جميعاً من المطلعين على سر هذه المُبايعة التي جمعت بين يمين الإيمان ويمين الطاعة، وتولاها المشرفون على تنفيذها وهم حذرون من سلطان رومة ومن سلطان الهيكل في وقت واحد، ثم جرت الحوادث مجراها الذي نعلمه من الأناجيل، مزيدًا عليها هنا وهناك حلقات تربط الصلة بين التاريخ الظاهر والتاريخ الباطن كما جمعه المؤلف من أسانيده ومن وحي خياله أو تنسيق فنه وتقدير ظنِّه، وربما زاد الجانب المضاف هنا وهناك على الجانب الأصيل.

---

1 The Other Side of the Story by Rupert Furneaux.

2 The Nazarene Gospel Restored by Graves and Podro.

ونحن ندع هذه التخمينات، ونجتهد في حذفها كما اجتهد المؤلف الروائي في إضافتها،ولكنَّنا لا نريد أنْ نحذفها، حيث تترك الفراغ بعدها أدعى إلى الحيرة والتردد من الإثبات.

وصفوة ما يبقى بعد حذف هذه التخمينات أن الدعوة المسيحية بعد السيد المسيح كانت ترجع إلى مركزين: أحدهما برئاسة جيمس (أي يعقوب) المُسمى بأخي الرب، ومقره بيت المقدس، والثانية برئاسة بولس الرسول ومريديه، ومقرها خارج فلسطين بعيدًا عن سلطان هيكل اليهود. وقد كانت شعبة بيت المقدس أقرب إلى المحافظة والحرص على شعائر العهد القديم، ملحوظةَ المكانة في العالم المسيحي داخل فلسطين وخارجها من بلاد الدولة الرومانية، كما يظهر من وصاياها ومن أجوبة المسيحيين في الخارج عليها، وكلها وصايا تحث على رعاية الشعائر الإسرائيلية كما تقدمت في النبوءات.

وظلت الرئاسة على العالم المسيحي معقودة لهذه الشعبة المقيمة في بيت المقدس حتى تهدم الهيكل، وتقوضت مدينة بيت المقدس، وتبددت الجماعة في أطراف البلاد،وآلت قيادة الدعوة إلى الشعبة التي كانت تعمل في خارج فلسطين، فكان لذلك أثرٌ كبير فيأسلوب الدعوة، وفي اختيار وسائل الإقناع، إذا اختلف الأسلوبان بين الخطاب الموجه إلى اليهود وحدهم، والخطاب الموجه إلى الأممين النافرين من اليهود، فبينما كان الخلاص على يد فرد من بني إسرائيل لإنقاذهم دون غيرهم أمرًا مفروغاً منه بين اليهود، كان العالم الخارجي بحاجة إلى صفات إلهية في الرسول المخلص يقبلها الأمميون، ولا يتقيدون في قبولها بالشروط والعلامات التي يلتزمها المتشبثون بحرف الناموس، وقد كانت كتابة الأناجيل في وقت يوافق هدم الهيكل وتفرق الشعبة المقيمة ببيت المقدس، فوضحت فيها دلائل الدعوة كما تولاها المبشرون بها في بلاد الأممين، وغلبت فيها الصفة الإلهية عليغيرها من الصفات المسموعة في جدار الهيكل، قبل إلحاح الحاجة إلى تدوين الأناجيل،ً وإن المؤلفين ليطنبوا إطناباً كبيرًا في ترديد الكلمات الإنجيلية التي تدل على اعتصام السيد المسيح بكتب التوراة، وتوصية التلاميذ باتباعها على سنة الفريسيين، وأشهر هذه الكلمات قوله للتلاميذ والجموع كما جاء في الإصحاح الثالث والعشرين، من إنجيل متَّى: "إنَّه على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أنْ تحفظوه فاحفظوه وتعلموه، ولكن حسب أعمالهم لا تفعلوا، لأنَّ هم يقولون ولا يفعلون".

ومن تلك الكلمات قوله كما جاء في الإصحاح الخامس:"لا تظنوا أنني جئت لأنقصالناموس أو الأنبياء، وما جئت لأنقص بل لأكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل"...

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح العاشر:»إلى طريق أمم لا تمضوا، وإلى مدينة السامريين لا تدخلوا، بل اذهبوا بالحري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة».

ومنها قوله كما جاء في الإصحاح الخامس عشر:"لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة ..." إلى أقوال أخرى تفهم في مضامينها إن لم تفهم من لفظها الصريح كما في هذه الأقوال..

رد وتعقيب

وعندنا أن المؤلفين أصحاب هذه النظرية في غنى عن العناء والعنت في تأويل الكلمات أوالتنقيب عن الصحائف المطوية، إذا كان قصاراهم أن يثبتوا أن الدعوة المسيحية ابتدأت بتوجيه الخطاب إلى الأمة التي تدين بالتوراة وتترقب ظهور المسيح المخلص من بين أبنائها، وأنَّ هم كذلك في غنى عن العناء والعنت إذا أرادوا أن يثبتوا أن القائمين بدعوة الأممقد اتخذوا لهم أسلوباً في الدعوة غير الذي يتفاهم عليه بنو إسرائيل الذين يقرءون الكتب ويعتقدون بما فيها من النبوءات، وأن رسل الدعوة المسيحية إلى الأمم قد وصفوا السيد المسيح بصفات لم يتصف بها السيد المسيح في كلامه الذي نقلته عنه الأناجيل.

كل أولئك لا حاجة بهم إلى العناء والعنت لاستنباط الأدلة عليه من مضامين الأقوال أو طوايا الصحف المنسية، ولكن هؤلاء المؤلفين أصحاب هذه النظريات يكلفون براهينه معنتاً شديدًا إذا حاولوا أن ينكروا أن دعوة الأمم قد بدأت في عهد السيد المسيح، وأن التلاميذ والرسل تعلموا منه أنْ يشملوا الأمم بدعوته، ولا يقصروها آخر الأمر على بني إسرائيل، فلم تتواتر أخبار الأناجيل على شيء كما تواترت على هذه الأخبار في مواضعها وفي مناسباتها المعقولة، ولم تأتِ الأناجيل في هذه الأخبار إلا بالنتيجة الطبيعية التي يعززها سياق الحوادث، ويستلهم منها منطق الأشياء كما نقول في مصطلحاتنا الحديثة. وماذا كان السيد المسيح صانعًا بعد رفض القوم دعوته وإصرارهم على رفضها إلا أنْ يتجهبرسالته إلى غيرهم، أو أنْ يكف عن هذه الرسالة ويعدل عنها بتاتاً، فيعدل عنها التلاميذ والرسل، ولا يتجهوا بها إلى الأمم ولا إلى إسرائيل؟

ولا يفوتن المؤلفين أصحاب هذه النظرية أن الرسل الذين بشروا الأمم بالمسيحيةهم الدعاة الذين احتملوا أشد العذاب في سبيلها، وهم الذين صمدوا لها بعد أنْ تفوقَ دعاة المسيحية في بيت المقدس، ومن يفعل ذلك لا بد أن يكون معتقدًا لما يدعو إليه، ولايكون مبلغه من العقيدة أنَّ يحتال لاجتذاب السامعين إليه بأسلوب غير الأسلوب المألوف عند بني إسرائيل، فكيفما كان مرجع هذه العقيدة، فالرسل الذين أعلنوها بين الأمم قد صدقوها قبل أن يدعوا الناس إلى تصديقها، وقد اطمأنوا إليها قبل أنْ يروضوا النَّاس على ابتغاء الطمأنينة فيها.

وبعد فنحن لا نستغرب الضجة التي أثارها المؤلفون بما ابتدعوه معتمدين على أسانيدهم التاريخية، أو على طريقتهم في تكملة التاريخ بتنسيق الصور الفنية من وحي القريحة أو من وحي الخيال، إلا أنَّنا نعود إلى أنفسنا فلا نرى أن هؤلاء المؤلفين قد أطلعونا على رأي طارئ يدعونا إلى تعديل شيء جوهري في الصورة التي أوضحت أمامنا لرسالة السيد المسيح عندما استجمعنا خواطرنا ومعلوماتنا لتأليف هذا الكتاب، ويسرنا أنَّنا نعُيده اليوم في طبعته الثانية كما بدأناه في طبعته الأولى بغير تعديل يذُكر إلا ما كانمن قبيل المطبعيات والتصحيفات، ويسرنا قبل ذلك أنَّنا لقينا من قرائنا عرفاناً مشكوراً نغتبط به، ويغتبط به كل من مارس التأليف في هذا الموضوع الجليل على التخصيص، ولاَّ نعلم أن منهجنا في الكتابة عن "السيد المسيح" قد لقي من أحد استنكارًا يحسبه الكاتب أو القارئ في حساب النقد المفهوم، وكل ما هنالك أن بعضهم ظن أن التأليف عن السيد المسيح يقتضي منا أنْ ندين بالمسيحية أو ندين بجميع مذاهبها في وقت واحد، ولم يقل أحد إنّنا إذا كتبنا عن برهما وجب أن نكون برهميين، أو كتبنا عن أديان الأمم وجبأنْ ننتقل فيها من دين إلى دين، ولو وجب ذلك على باحث لما كتبت تواريخ الأديان، ولاتواريخ الدعاة إليها ممن يتفقون في الملة الواحدة، أو لا يتفقون، بل لو وجب ذلك لما كتبعن الشرق إلا المشارقة، ولا كتب عن أوربة إلا الأوربيون، ولا كتب عن الماضي إلا من كان فيه، ولا عن المستقبل إلا مولود من بنيه، ولا وجوب لشرط من هذه الشروط المفروضة فيحكم من أحكام النقد المفهوم.

وإنصافًا لكثرة القراء الغالبة، نقول إنهم من الوفرة بحيث تحسب هذه القلة إلى جانبها بحساب النسبة إلى الألف، لأنَّها أندر من أنْ تحسب النسبة إلى المائة، وإنَّ ما تصادفهاعلى نسبة متفاوتة في شعب شتَّى من المطالعات التاريخية الدينية، فربما كتبنا عن الخلفاءالراشدين كلامًا لم يعجب أفرادًا من الشيعة، أو كتبنا عن معاوية بن أبي سفيان كلامًا لم يعجب أفرادًا من غيرها، ولكن العبرة من وراء هؤلاء بالقراء الذين يقرءون ما يوافقهم ومايخالفهم ولا يرضيهم من الكاتب أن يعطيهم نسخة مكررة مما في ضمائرهم وخواطرهم، وبين أيدي هؤلاء القراء قدمنا الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ونقدم الآن طبعته الثانية على بركة لله.